

بسم الله الرحمن الرحيم

نص كلمة سيدي الشيخ الحاج عبد الله المشري في (ملتقى الذكرى المئوية
الثانية لوفاة الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه)

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، اللهم لك الحمد كما
ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح الخاتم حق
قدره ومقداره العظيم.

شيخ الزاوية سيدي محمد الكبير، سادتي أبناء الشيخ، السادة أحباب الشيخ
وضيوفه، السلام عليكم.

شيخنا الختم التجاني السلام عليكم،

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ثم نقول أولا وأخرا خاشعين ذاكرين:
التحيات لله، الزاكيات لله، اللهم أنت السلام، ومنك السلام.

أما بعد؛ أيها السادة فهذا مقام جليل مهيب ينبغي أن أعمل فيه بقول الشيخ أبي
مدين الغوث في رائيته المشهورة:

ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

لكني طلب مني المنظمون منذ ساعة كلمة باسم موريتانيا وعلى مذهب من
يقدم الامتثال على الأدب - وعسى أن لا يتعارض - فأني أشير باختصار إلى
أمر أربعة:

1- إن هذا اللقاء مناسبة عظيمة مباركة نحمد الله الذي من بها ويسرها ولأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الذي رواه الأئمة: أحمد، وأبو
داود، والترمذي، وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لا يشكر الله
من لا يشكر الناس، فأني أكرر الشكر والدعاء لأمير المؤمنين مولانا محمد
السادس نصره الله على ما يقدم كل حين من خدمة للدين داخل المغرب وخارجه
ومن ذلك تكريمه للعلماء ورعايته للطرق الصوفية السنية، ونشكر ونذكر هنا
خصوصا العناية الشاملة الكاملة، والرعاية التامة الخاصة والعامة التي يحيط بها
الزاوية التجانية وشيوخها وفقراءها والتي توجت بظهير ملكي شريف، وتتجلى اليوم
في المستوى العالي لهذا اللقاء الصوفي الصافي فقد واصل أمير المؤمنين نصره
الله نهج آبائه أمراء المؤمنين وزاد، جزاه الله خيرا، وها نحن نشاهد المزيد من
ثمرات خدمة الطريقة التجانية في ظل العرش العلوي المجيد.

وقد أشار بالأمس أحد العلماء إلى أسباب اختيار شيخنا التجاني لفاس ليستوطنها فذكر فضل الشرفاء العلويين وعدلهم وذكر البيعة الشرعية المتوارثة التي خص الله بها المغرب. ولا شك أن المغرب بلد طيب يصلح لأحسن البذور ويخرج أطيب الثمرات. وفي صحيح مسلم (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة). والمجال واسع للمتأملين وهو أوسع للمتوسمين.

لكن لا يخفى على أحد بعد قرنين من الزمن أن اختيار الشيخ التجاني رضي الله عنه كان موفقا؛ فمن المرجحات للمغرب وللملوك العلويين بالأمس واليوم وغدا إن شاء الله - من ما يمكن أن يقال على منبر عام في هذا المجال - ما أشار إليه مالك بن أنس حين نصح الشافعي رضي الله عنهما "أن لا يسكن في البادية وأن يعتمد على ذي جاه لئلا يستخف به العامة".

فإذا كان ذو الجاه هذا سلطانا عادلا شريفا عالما مباركا وكان العالم المتعاون معه ربانيا ذا بصيرة يعلم من الله ما لا نعلم، كانت النتيجة ما نرى اليوم.

فمنذ ساعة كنا في دار المراية نحتفل بانطلاقة أعمال ترميمها بحضور معالي وزير الأوقاف دام موفقا ، بأمر من أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله، فقد وقفنا وقفة تلهم الكثير بعد أزيد من مائتي عام على اللقاء التاريخي بين المولى سليمان والشيخ التجاني، اجتمعنا فيها والشيخ التجاني يعزز من جديد ويكرم، كما عزز وكرم عندما حل بفاس أول مرة وكان الزمان قد استدار، فهذا حدث يبعث آمالا ويوجب أعمالا والله يحقق الرجاء.

ولاشك أن عناية أمير المؤمنين من علامات الإذن الإلهي فيها هو الشمل يجتمع والحمد لله ، فهنا اليوم أبناء الشيخ وبعضهم أتى من عين ماض ، وهنا كثير من المقدمين والخلفاء والزاوية الكبرى تم تجديدها، والأسرة التجانية الشريفة في احتفال، والأحباب في لقاء ولقاح، أدام الله النعم .

هذا وإن الزاوية التجانية أمرها قائم بالله لكن عطاءها يزداد بالنظام:

فأدر يزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم

والواجب الآن هو انتهاز الفرصة فقد هيا الله لنا على يد عبده أمير المؤمنين ظروفا مثالية . فينبغي أن نخطط للمزيد من العمل لنصل إلى مستوى أفضل من التعاون على البر والتقوى ، فهذه فرصة نادرة أكرر ذلك ، والله الموفق وهو المستعان وإلى الأمام.

- **النقطة الثانية:** قلت إنني طلب مني تمثيل موريتانيا بهذه الكلمة المتواضعة والواقع أن وفد بلادنا - على قلته- يضم المشايخ والعلماء والشعراء وأساتذة الجامعة الذين كان بودي أن يتقدم أحدهم، وإن كان كفى موريتانيا تمثيلاً كون أحد العروض التي قدمت كتبه العلامة محمد فال بن عبد الله (اباه) الذي هو بفضل الله أكبر علماء قطرنا، ويعتبره الجميع في بلادنا حجة ومرجعاً لا يقدم عليه أحد في الفتوى ويلجأ إليه الكثيرون على اختلاف المذاهب والمشارب.

ولعل من المفيد إذا كان الحديث بحسب البلدان أن نذكر التجارب والمزايا لأهل الطريقة في كل قطر، ومن ما من الله به على قطرنا شنقيط - وإن لم يتفرد بذلك - أن شيوخ الطريقة فيه كانوا من كبار العلماء، وبما أن الوقت لا يسمح بالإطالة والإسهاب في الموضوع إلا أنني أشير إلى سبق علماء شناقطة في مجالات شتى.

ففي التعريف بالطريقة وبشيخها لا يجهل أحد مكانة "منية المريد" للعلامة التجاني بن بابه العلوي، فإن أكثر من تحدثوا في هذا اللقاء عن الشيخ وعن الورد التجاني إنما نقلوا عن هذا الكتاب وشرحه الأعظم بغية المستفيد.

وفي ميدان الردود يعرف المنصفون جيش ابن امبوجه وسريته.

كما يحتل كتاب أخيه سيدي عبيدة : "ميزاب الرحمة" الصدارة في التربية.

وفي مجال التراجم لا يخفى ما للسيد أحمد بن محم مؤلف روض الشمائيل من سبق في تراجم أهل الطريقة.

ويكفي مثالا لفضل ذلك السلف الصالح أن الخليفة الجليل أبا المواهب سيدي العربي بن السائح الذي لقي جماعة من أصحاب شيخنا التجاني أخذ سند شيخ شيوخ الشناقطة والأفارقة العلامة الشيخ محمد الحافظ العلوي رضي الله عنه وكان هو السادس فيه وصار يعتز به ولم يعتبره نازلاً.

ولا شك أن في سلفنا ما يثبت أن طريقنا طريق العلماء كما للأقطار الأخرى علماءها التجانيون السابق نذكر منهم على سبيل المثال شمالاً وجنوباً : الشيخ إبراهيم الرياحي والشيخ عمر الفوتي والأمثلة كثيرة يمكن ان تؤخذ من "فتح الملك العلام" للعلامة الحجوجي رضي الله عنه.

لكن ينبغي أن تتواصل الجهود لكي تظل طريقنا طريق العلماء كما نقول ويقول أصدقائنا بل ويقر أعداؤنا، كما قال الأستاذ عمر مسعود.

3- ثالثاً: لنقف عند عنوان الملتقى: (الذكرى المئوية الثانية لوفاة الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه).

ولست واعظاً ولا معلماً وأنا أمام شيوخ بل أمام الشيخ التجاني رضي الله عنه في زاويته، لكن الذكرى تنفع المؤمنين، والدين النصيحة، فلنقف إذن وقفة اعتبار وشكر: " وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً".

ومن الآيات التي جعلت أصلاً لعلم التاريخ: " لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا" ولا نخوض في تفسير الآية وما قيل عن المسجد هنا هل هو المسجد النبوي؟ أم مسجد قباء؟ لكن ننبه فقط إلى شروط الصحة و الكمال للمساجد والمدارس والمؤسسات والزوايا فلا بد أن تؤسس على التقوى وذلك بفضل الله حاصل هنا كما قال الإمام الرياحي:

فما ظنونك بالورد الذي نظمت يد النبوة هل يبني بلا ساس؟

وقبله قال عبد الرحمن الشنقيطي:

أوراده عن رسول الله قد رويت كذاك أفعاله والسر مآثور

فاستقامة الأساس حصلت والشروط الأخرى المتغيرة والمتجددة هي العنصر البشري المستفيد والمفيد: " فيه رجال يحبون أن يتطهروا" دون اعتبار المفهوم: " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" ومع الرجال أعمال وأخلاق، فالعمل هنا الطهارة، الطهور شطر الإيمان، والخلق هو أداء العمل بحب، فلم يصفهم فقط بأنهم يتطهرون لكنهم يحبون أن يتطهروا وذلك معنى من معاني الإحسان الذي سيعرف باسم التصوف.

فالزاوية وأهلها لهم صفات وأعمال وأخلاق يتميزون بها:

" إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر " الآية.

ومرور مائة سنة لا سيما مائتان على جماعة أو فكرة ينبغي أن يكون مناسبة للمراجعة والمحاسبة. وفي الحديث: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" كما روى أبو داود ولا أورده هنا لتغيير الثوابت ولا لتشجيع دعاوي، فطريقتنا والله الحمد بعيدة عن ذلك، ويكفي أن أبا المواهب سيدي العربي بن السائح سئل هل كان شيخنا التجاني مجددا فتوقف وقال إنه ما روى ذلك، ولعله قصد معنى خاصاً.

وعلى كل فإن النظر في الأمور المتجددة لا بد منه ولا بد من الاجتهاد أحيانا لكن مع مراعاة الضوابط والقواعد والأصول ، ولا بد أيضا من التصدي للمحدثات التي تهدد بل تهدم الأصول وكان علماء طريقتنا دائما في رباط واستنفار يحمون الطريقة من الداخل ومن الخارج يقولون مع العلامة النظيفي وكأنه يشير إلى الجهتين:

إني أعيذها برب الناس
وإني أعيذها بالخالق
من متلبس ومن خناس
من كل مارد وكل مارق

وينشد كل واحد منهم :

خل سبيل الحرة المنيعة
إنك لاق دونها ربيعة

وأكتفي هنا بمثال واحد فمنذ أكثر من مئة عام لوحظت بدع في أداء ذكر الجمعة وكان من أول من تصدى لإنكار ذلك سيدنا البشير بن سيدنا محمد الحبيب التجاني فوجه رسالة إلى فقراء فاس عام 1315 كتب فيها : "إني كنت أمرتك قبل بذكر الهيلة الشريفة يوم الجمعة سردا لأجل ما وقع من البدع بالزاوية كحضور النساء إلخ " وكان ذلك لم يكف.

فلما كان عام 1337 أي سنوات بعد وفاة سيدنا البشير كتب ابن أخيه سيدنا علال بن سيدي أحمد عمار وابناه : سيدي محمد الكبير وسيدنا محمود كتبوا كلهم يبالغون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن رسالة سيدي محمد الكبير - مثلا - سبحان الله سبحانه، سبحانه كيف يمكن أن يكون هذا الفعل الغير الموافق لأصول الطريقة في هذه الزاوية الميمونة التي عم خيرها وهذه الأرجاء مع كثرة من بها من العلماء والفضلاء فلا جرم أن سكوت العلماء أصل جميع الضرر مع أنه يتعين عليهم تغيير المنكر". وكتب مع أبناء الشيخ في تلك القضية إرشادا وإنكارا أكثر من عشرين من علماء الطريقة وكبرائها المغاربة وما سكتوا حتى ترك الناس تلك البدع بل تركوا معها القيام وقت الذكر على الطريقة الخلوتية الذي كان معمولا به في زمن الشيخ رضي الله عنه. وبعض التفاصيل المذكور في رفع النقاب وهو مشهور ومنشور بالإنترنت.

ولا شك أننا بعد قرن آخر فيه بدعه وطاماته نحتاج إلى ورثة أولئك الأئمة ونحتاج إلى اجتهاد جماعي و تجديد محدود مضبوط وعندنا من نصوص الشرع وآداب القوم وأقوال الشيخ ما يعين على ذلك.

فجزى الله الشيخ سيدي محمد الكبير التجاني فقد نشر مختارات من رسائل الشيخ وأعطى لكل واحد منا نسخة ينبغي أن تكون لنا نورا نمشي به في الناس وزيادة على تلك الرسائل هنالك كتب للطريقة وتراث شفوي ينبغي أن ينقح. وفي هذا الباب باب التجديد تكفينا كلمتان ثابتتان عن الشيخ رضي الله عنه جلنا يحفظهما ؛ **فالكلمة الأولى** : " إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع " الخ وينبغي أن تكون أم القواعد وهي الأصل الثابت .

وأما الكلمة الثانية فهي قوله رضي الله عنه: " بسير زمانك سر " فهي قاعدة واقعية تراعي المتغيرات، ولا بد من الرسوخ قبل استعمالها ثم إن الطريقة والله الحمد مدرسة حية تتسع كل حين ، وتملاً كل متعرض من البحور والأواني، وبلغ الشاهد الغائب، وفاضت الحكمة، وكان للشيخ ورثة رأوا في كل ذرة من أقواله وأحواله ذرة، فالكلمة الأم التي ذكرنا: " إذا سمعتم عني شيئا..... " الخ استمد منها الشيخ إبراهيم انياس رضي الله عنه مثلاً كلمة أخرى ملحقة بها بل بنتها، نافعة مثلها؛ حين قال : " كلمة شيخنا التجاني رضي الله عنه تحت مريديه على طلب العلم وعلى أن يكونوا علماء فالوزن بميزان الشرع لا يتأتى إلا من عالم." وقد تنتج كلمة الشيخ سيدي أحمد التجاني تلك كلمات أخرى وكتبا وجامعات وأعمالا وطاقات فالمدد لا ينقطع.

- **رابعا**: اسمحوالي مرة أخرى لأذكر بأن هذا زمن ينبغي أن نبرز فيه آداب الطريقة وأخلاقها بدل التركيز على المبشرات، نعم عندنا بشارات ونقبلها ولا بد من التبشير في الدعوة. ففي الحديث المتفق عليه عن انس رضي الله عنه: " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا".

لكن بشارات الأولياء إنما تأتي بعد تصحيح الإيمان وتحصيل التقوى " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة".

وقد ورد أيضا في حديث صححه ابن حبان: " ينبغي للعاقل أن يكون بصيرا بزمانه"، ونحن نعيش واقعا صعبا فأكثر الناس في غفلة معرضون وأعداء الصوفية كثيرون، ويتتبعون العورات ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فطريقتنا والله الحمد رزقها الله القبول ودخلها كثير من الناس بعضهم مال إلى الراحة واكتفى بحلاوة المبشرات ، فصار كمن يترك الوجبات الرئيسية ويكتفى بالحلويات ، فلا شك أنه إن دام على ذلك سيضعف، ويمرض، ويموت .

وقد اتفق ناس من كلا الطرفين على التركيز على المبشرات بل على كلمات قليلة بعضها موهم الظاهر، وبعضها ربما يكون روي بالمعنى ، وطغى

ذلك القليل المتشابه أو القابل للتأويل على الكثير الواضح المربي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فنرجو أن نستعين بهذا اللقاء المبارك لنرجع إلى الأصول ونميط الأذى عن الطريق ولنخدم التصوف ولنساعد الطوائف الأخرى على مسالمة الصوفية: " لا تعينوا الشيطان على أخيكم" كما في الحديث الصحيح ، وأيضا كما يقول الصوفية: " نسلم ويسلمون خير من نسلم ويأثمون".

والطريقة التجانية اليوم رائدة التصوف الحي عند كثير ممن يحبه وكثير ممن يحاربه.

وإني أقترح في هذا المكان المبارك أن يقوم أهل العلم منا بالاحتفاء والاحتفال بالذكرى الألفية لرسالة القشيري التي ستحل بعد سنوات قليلة؛ رسالة القشيري ذلك النداء الصادق القوي الذي صدر منذ ألف عام وأثبت فيه الإمام فضل التصوف، لكنه في نفس الوقت شكى من تغير الحال وغربة الرجال وذهاب الشيوخ الذين يصح بهم اقتداء، وقللة المريدين الذين لهم اهتداء وبعد عشرة قرون ازداد طغيان المادة واقتربت الساعة وجاء طوفان العولمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأختم بطلب الدعاء منكم جميعا وبهذا الدعاء الذي جعله الشيخ التجاني من أوراد طريقتنا بعدما علمنا أن الذنوب في هذا الزمن لا قدرة لأحد على الانفصال عنها لأنها تنصب على الناس كالمطر الغزير: " اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرحم من عملي " اهـ

الحاج عبد الله المشري

فاس 18 شوال 1430هـ الموافق 8 أكتوبر 2009

لاقتراحات الأخوة واستشكالاتهم يرجى الاتصال بالعنوان التالي:

mar.ochidou@gmail.com